الجدل البيئي في روايات زهور كرام

أ.د. اوراد محمد كاظم التويجري

جامعة بابل/ كليّة التربية للعلوم الإنسانية/ قسم اللغة العربية/الأدب

hum762.sajad.alaa@student.uobabylon.edu.iq

الباحث: سجاد علاء حسين

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة أثر الجدل البيئي في بناء الوعي البيئي في روايات الروائية زهور كرام، وكيف ساعد هذا الجدل في تغيير علاقة الشخصيات بالطبيعة من حولها. وسنسعى في هذا البحث الى استثمار مفهوم(الجدل) الفلسفي لتحليل العلاقة بين الانسان وبيئته الطبيعية من خلال الأفكار والمواقف التي استخدمتها الروائية للتعبير عن مشكلات الأزمة البيئية المعاصرة ومخاطرها. ويخلص البحث من خلال الوقوف في ثلاثة محطات تناولت مراحل الجدل البيئي معتمدين في تبويبها على جدلية هيغل التاريخية، إلى أن الروائية زهور كرام في تصويرها للأزمة البيئية لم تتعامل مع الطبيعة بوصفها مكاناً ثانوياً أو مجرد ديكور للأحداث، بل كعنصر أساسي يعكس مخاطر هذه الأزمة وآثارها على الكائن الحي.

الكلمات المفتاحية: الجدل البيئي، روايات زهور كرام، الوعي البيئي، الطبيعة، الأزمة البيئية، هيغل

Abstract:

This research aims to examine the impact of the ecological dialectic on building environmental awareness in the novels of the novelist Zohour Karam, and how this dialectic contributed to altering the characters' relationship with the surrounding nature. The study addresses the ideas and stances employed by the novelist to express the challenges and hazards of the contemporary ecological crisis. It also highlights the connection between human stability and the safety of their environment in the novel, demonstrating how the ecological dialectic has transformed into an artistic medium that reflects a moral and humanitarian stance against pollution and environmental corruption. By analyzing three distinct stages that address the phases of the ecological dialectic—relying on Hegel's historical dialectic for their classification—the research concludes that Zohour Karam, in her depiction of the ecological crisis, did not treat nature as a secondary setting or a mere backdrop for events, but rather as a fundamental element that reflects the dangers and repercussions of this crisis.

Keywords: Ecological Dialectic, Zohour Karam's Novels, Environmental Awareness, Nature, Ecological Crisis, Hegel.

توطئة:

يُعد مفهوم الجدل من ابرز الادوات المنهجية التي استخدمها الفلاسفة على امد القرون الطويلة للوصول الى الحقيقة وتحليل الواقع، ابتداءً من الحقبة اليونانية المتمثلة بسقراط وافلاطون وارسطو[1]، وصولاً الى الحقبة الفلسفية الكلاسيكية، المتمثلة في اشهر الفلاسفة الذين استخدموا المنهج الجدلي وهم كانط وهيغل الذي بلغ معه الجدل ذروته المنطقية في استخدامه للتحليل والوصول الى الحقائق الجوهرية وتجاوز التناقضات الظاهرية، فالجدل هو (ليس مجرد نقاش أو مناظرة، بل هو عملية ديناميكية تتضمن التفاعل بين الأفكار المتناقضة للوصول إلى معرفة أعلى أو تركيب جديد)[2]، والجدل في اعمق تجلياته(هو مبدأ كل حركة وكل حياة، وكل ما يتم عمله في عالم الواقع، بل إنه أيضاً روح كل معرفة تكون حقاً علمية)[3]، وفي ضوء هذا، سنسعى في هذا المبحث الى استثمار هذا المفهوم الفلسفي (الجدل) لتحليل العلاقة بين الانسان وبيئته الطبيعية اذ نجد في هذا المفهوم (الجدل) الاداة المنهجية الانسب، مستندين في ذلك الى رأي هيغل (ان كل ما يحيط بنا يمكن أن يُنظر إليه على أنه مثال على الجدل)[4]

ان سعينا في تطويع جدلية هيغل لخدمة الرؤية البيئية في تحليل مدونة زهور كرام لا ينبع من كونه ترفًا فكريًا، بل من الايمان بأن الجدل هو المحرك الفعلي للوجود، اذ يقول هيغل معبرًا عن رأيه بموسوعية هذا المنهج (وبغض النظر عن هذه الموضوعية العامة للجدل، فإننا نجد آثاره في جميع المجالات الجزئية: في العالم الطبيعي والعالم الروحي على السواء)[5]، فهذا الشروع في استخدام المفهوم الهيغلي للجدل سيسمح لنا بتوسيع الرؤية النقدية من خلال النظر الى المحيط البيئي بما يحتويه من تلوث ونقاء واتصال وانفصال على انها حركة جدلية متواصلة، وبناءً على هذه النظرة النقدية سنقارب الجدلية البيئية في مدونة زهور كرام بوصفها قانوناً يحكم حركة الفكر والواقع والبيئة معاً، محولين الجدل من

اداة استكشافية الى قوة دافعة للتطور الوجودي والإيكولوجي، ذلك لان المتخيل السردي عند زهور لا يتحرك ضمن فضاءات ساكنة، بل ينبثق من صيرورة اشتباك دائم بين الإنسان وبيئته الطبيعية.

والان لكي ننتقل من عالم الفلسفة الى ميدان النقد الادبي البيئي ونجعل هذا الربط بين الميدانين واقعًا ممكننًا، سنعتمد قاعدة بسيطة توضح لنا كيف تتطور علاقة الشخصيات الروائية ببيئتهم الطبيعية، وهذه القاعدة هي كالآتي:

الطبيعة ⟵الثقافة = وعي بيئي جديد

وسيكون شرح هذا المعادلة من خلال ثلاثة محطات يمر بها تحليلنا لمدونة زهور كرام وهي: الطبيعة الاصل وهي المحطة الاولى التي تمثل الميثاق الفطري بين الانسان والطبيعة وهو الارتباط العفوي، حيث الطبيعة هي كل شيء. والثقافة وهي المحطة الثانية التي يستبد بها الانسان، ونقصد بها كل ما احدثه من تغيير سواء كان تغيّر ملامح الطبيعة او الهجرة القسرية نتيجة لغياب العدالة البيئية، لتمثل الثقافة هنا قوة صادمة تكسر ذلك الانسجام الفطري. وصولًا الى المحطة الاخيرة وهي الاطروحة المركبة في قاموس هيغل، والتي ستكون في الجدلية البيئية تشكيل (وعي بيئي جديد)، وهي كذلك المحطة الاخيرة في هذا البحث والتي ستمثل الوعي الجديد الذي سيتشكل من خلال تناقض المحطة الاولى والمحطة الثانية عند المتلقي، فالمتلقي هنا بعد مروره في المحطتين السابقتين سيعود للطبيعة بوعي جديد يحمل فيه ثقافة بيئية جديدة يحمي من خلالها الطبيعة ويدافع عنها. وبهذا تتجاوز حركة الجدل السطور الروائية لتستقر في وجدان المتلقي، فتتحول المتعة الجمالية للرواية إلى مسؤولية اخلاقية تجاه الطبيعة.

- أولًا: أطروحة الاتصال (الانسجام الفطري)[6]:

ينفتح هذا المطلب على المحطة الاولى من رحلتنا الجدلية لهذا المبحث وهي لحظة الأطروحة، اللحظة الذي تكون فيه الشخصيات الروائية في حالة اتصال وانسجام فطري بدون التزام من قبل الوعي بالبيئة الطبيعية. وهي اللحظة التي تسبق الفاجعة البيئية. واذا كان الجدل هو القانون الذي يحكم العالم الطبيعي والروحي على السواء[7]، فأن الانتقال من البعد الفلسفي الى التجريد السردي في مدونة زهور كرام يقتضي منا النظر الى النص بوصفه مختبرًا لهذه الجدلية، لذا سنسعى هنا الى تقصي تلك الموضوعية العامة للجدل في لحظة سكونها وثباتها، اذ لا يرى الانسان ذاته الا امتدادًا للطبيعة وعناصرها، ويكون هنا اليقين البيئي هو سيد الموقف، حيث الوطن ليس مجرد بقعة جغرافية، بل هو ميثاق ايكولوجي فطري، فنجد هذه اللحظة متمثلة في رواية (غيثة تقطف القمر) اذ نجد عمر يقول **(لم أفكر يوما في ركوب البحر. كنت أسخر من كل قادم نحو العبث. نحن ننتمي إلى وطن بلون الورد. لم أر يوما الأسود في كلام أمي هي من طينة الأرض بلون التراب ...)**[8] يبتدأ النص بإعلان حالة الاستقرار الفطري بين الشخصية (عمر) والطبيعة، فهذا الاستنكار لفكرة الهجرة هو تأكيد على فكرة (الاطروحة) التي كانت تتمتع بها الشخصية، وما يؤكد هذا الاستقرار الذي كانت تتمتع به الشخصية هو قولها (كنت أسخر من كل قادم نحو العبث) اذ يشير هنا العبث الى كل فعل يؤدي الى نقض اطروحة الاستقرار، ونجد من خلال قول الشخصية (ننتمي الى وطن بلون الورد) ان الورد هنا ليس مجرد تشبيه بنباتٍ عابر، بل هو رمز لتلك الفترة المتميزة بالاستقرار البيئي (الاطروحة)، التي يصل بها الالتحام بين الانسان وبيئته الطبيعية ذروته، ونجد هذا الالتحام الفطري من خلال وصف الام بأنها (من طينة الارض بلون التراب) فهنا تتلاشى الحدود بين الانسان والطبيعة فهو لا يعيش على الارض بل هو من الارض، وفي هذه الحالة تكون الطبيعة هي الام والرحم الاول للكائن، وهي

مرحلة يغيب بها النقيض(لم أرَ الاسود...)، وهذا يدل على ان الوعي البيئي في تلك الفترة ما زال بحالته الفطرية التي لم تعرف التلوث والاغتراب البيئي. فيمثل لنا هذا النص في المجمل لحظة الاتصال الفطري بين الانسان وبيئته الطبيعة، حيث الطبيعة هي الام والوطن هو الورد واليقين هو الفطرة، فتتجلى لنا من خلال الاطروحة التي تمثل الطرف الاول في المعادلة الجدلية عند هيغل.

- ثانيًا: تجليات النقيض (تصدع الأطروحة وانكسار الميثاق الفطري):

ننتقل هنا الى الطرف الثاني من المعادلة الجدلية وهي التي تمثل نفي او نقض الطرف الاول(الاطروحة)[9]، هذا الطرف يمثل المحطة التالية التي سنتوقف عندها لنكشف من خلالها عن التصادم بين الوعي الفطري وسطوة الافعال الثقافية، التي جاءت لتقوض أركان الاتصال الايكولوجي (الاطروحة البيئية)، فننتقل من فضاء الانتماء الى ضيق الاغتراب، اذ تتخلى الطبيعة عن صفتها كرحمٍ آمن لتتحول بفعل التدخلات البشرية والآلية الجائرة الى فضاء يملأه الرماد والضياع.

ان هذا التصدع الذي اصاب الاطروحة يمثل نقضًا للميثاق الفطري بين الانسان وبيئته الطبيعية الذي صاغته زهور كرام في المحطة السابقة (اطروحة الاتصال) فالالتحام البيولوجي بين الانسان والارض واليقين الذي كان "ماءٌ وقمحٍ" يصطدم هنا بغربة البحر ورماد المدينة المنكوبة، فسنعمل هنا على استقصاء الكيفية التي تمارس بها الثقافة –في تجلياتها السلبية– استباحة الطبيعة وتقويض العلاقة الفطرية بين الانسان وبيئته الطبيعية، سواء عبر التلوث المادي للبحر، او عبر التشويه العمراني الذي يستبيح الجسد، او من خلال غياب العدالة البيئية التي تحول البيئة الطبيعة الى بيئة معادية. ان هذا النقيض في جوهره ليس مجرد غياب للاتصال والانسجام بين الانسان والطبيعة، بل هو التوتر الضروري

والتصدع الوجودي الذي سيولد (القلق البيئي)، ليكون حجر الزاوية في تشكيل الوعي البيئي الجديد الذي يتجاوز ركام المدينة وغياب العدالة البيئية.

ننتقل الآن الى رصد الكيفية التي تتجسد فيها قوة النفي في سرد زهور كرام، والتي تتحول فيها العناصر الطبيعية من رموز للحياة إلى ادوات للنكبة البيئية، اذ نلمس المواجهة الاولى بين الاطروحة (النقاء الفطري للطبيعة) وبين النقيض (التلوث البيئي) بسبب التقدم الثقافي للكائن البشري[10]، فتبدأ الطبيعة هنا بالتراجع عن كونها قوة مانحة للحياة امام الهيمنة الثقافية السلبية. فيتحرك الجدل هنا في مساحة السلب، حيث يفقد البحر لونه وتفقد السماء انفاسها، ويتحول الكائن في ظل هذا التراجع من حالة الاستمتاع بالطبيعة الى حالة الحذر الوجودي، فتقول الساردة في وصف موقف آدم في ظل تفاق التلوث الذي اصاب المدينة بفعل رمي السفينة نفاياتها في البحر(**قضى يومًا بكامله خارج العمارة. لم يذهب إلى البحر، ما يزال التلوث يخنق السماء، ولون البحر داكنٌ صار. من قال إنَّ الصياد تسمَّم بالسمكة اليتيمة...**)[11] نجد في هذا النص الاعلان الرسمي لانقطاع ذلك الاتصال الفطر السابق الذي جعل الوطن ماءً وقمحًا، ليصبح تسممًا ورمادًا. فنجد ان هذا الامتناع عن الذهاب الى البحر ليس ترفًا، بل هو فرضًا واجب الخضوع له كنتيجة حتمية لقوة النفي التي مارستها الثقافة المادية السلبية على الطبيعة(البحر)، لذا فأن بقاء ادم خارج الشقة دون الذهاب الى البحر الذي اعتاد الذهاب اليه، يعكس حالة التيه والتصدع بين الذات ومحيطها البيئي. وتتجلى الآثار السلبية لهذه الثقافة (الصناعة، السفن، النفايات) في ابرز صور عنفه من خلال عبارة(ما يزال التلوث يخنق السماء، ولون البحر داكنٌ صار)، فدوام فعل التلوث في هذه العبارة نجده قد حول عناصر الطبيعة الى قوة خانقة، قوة الاختناق هذه هي النقيض الجدلي للتنفس (الاتصال الفطري)، فالسماء التي كانت فضاءً للحياة أصبحت قيدًا وجوديًا يهدد كينونة الكائن. وعلى مستوى الجدلية البصرية نجد ان تحول لون البحر الى الداكن هو

النفي الجدلي لزرقة البحر و(الوطن الذي هو بلون الورد) الذي كان يتمتع به الاستقرار البيئي في مرحلة الأطروحة، هذا التشوه البصري يؤكد على تصدع اليقين الجمالي للطبيعة.

ونجد الصدمة الجدلية (النقيض) تصل لذروتها في هذا النص من خلال السؤال الاستنكاري الذي تطرحه الساردة (من قال إنَّ الصياد تسمَّم بالسمكة اليتيمة)، ففي الاطروحة سابقًا كان السمك جزءًا من النشيد الذي قد تغلغل في ذاكرة الشخصية بفعل الانسجام التام والفطري بينها وبين الطبيعة، أما هنا فتتحول السمكة بفعل التلوث الى سمّ، وهذه هي الصورة الأمثل لتجسيد بشاعة الانكسار للميثاق الفطري بين الانسان والطبيعة، فالطبيعة الواهبة للحياة يتم تسميمها بفعل التطور الثقافي في المجال الصناعي الذي يطرح مخلفاته الصناعية في الطبيعة، لتصبح هي بدورها قاتلة للإنسان. بالإضافة الى ان تسمية السمكة باليتيمة نجدها تضفي بعدًا مأساويًا على الفجيعة البيئية، فهي يتيمة لأنها انفصلت عالمها النقي وباتت تصارع وحدها في محيط بيئي ملوث، وهذا في جوهره تمثيل لحالة اليتم الوجودي للإنسان والبيئة معًا في مرحلة النقيض.

واذا كنا في النص السابق قد رصدنا حالة التلوث التي غصة بها المدينة وغيبت عناصرها الطبيعة وقوضت الاتصال الفطري بين الانسان والطبيعة كنتيجة مباشرة للأثر السلبي للثقافة المادية، فأننا سنعمل هنا على رصد اثر الثقافة الادارية لمؤسسة الدولة في تغيب العدالة البيئية التي تؤدي قسرًا الى قطع الاتصال الفطري بين الانسان وبيئته الطبيعية، اذ يتحول الاغتراب من حالة شعورية في ظل التلوث الى نتيجة حتمية لغياب العدالة البيئية. يمارس هنا طرف المعادلة الجدلية الثاني (الثقافة) اقسى تجلياته السلطوية، فسوء الادارة والظلم الاجتماعي لم يلوث الطبيعة، بل لوث معنى البيئة الطبيعية للوطن في وعي الافراد، فالإنسان الذي كان يرى في طبيعة الوطن الوفرة والعطاء (ماء، قمح، فوسفاط،...) في المحطة الاولى، اصبح الأن في ظل هيمنة النقيض يراه غريبًا يلفظ أبناءه نحو الموت المالح، فيقول عمر مخاطبًا اخته غيثة بعد محاولاتها اقناعه بالتراجع عن قرار

الهجرة، بجزعٍ شديد**(كما ترين، صار الوطن غريبا.. دعيني إذن أمارس رغبتي قد أموت غريبا في البحر، فيأكلني سمك البحر. والسمك غريب عنا. أو نحن الذين غرباء عنه)**[12]، يبدأ السرد بتقرير حقيقة صادمة وهي الاغتراب البيئي، اذ يعد هذا التغريب هو النقيض المطلق لليقين الجغرافي الذي رصدناه في الطرف الاول للمعادلة(الاطروحة)، اذ لم تعد البيئة الطبيعية للوطن أطروحة للاستقرار، بل اصبحت نفيًا له، طاردة له، هذا التحول في دور الطبيعة هو النتيجة الحتمية لسوء ادارة الموارد الطبيعية من قبل السلطة، فعندما تحتكر الموارد (الماء، القمح، الفوسفاط...)[13]ويغيب التوزيع العادل للموارد، يفقد المكان جوهره الفطري ويصبح مجرد حيز جغرافي بارد ومتوحش، فيتحول البحر من بيئة طبيعية واهبة للحياة عبر ما تمنحه من خيرات وموارد وما يشكله من فضاء ترفيهي، الى فضاء للنفي والموت، وان الانتقال الذي يشرع فيه عمر من يابسة ظالمة الى بحر مجهول يعكس ذروة الاغتراب البيئي، واختيار الموت غريبًا في البحر هو الاعلان الرسمي عن فشل الثقافة المجردة في الحفاظ على البيئة الطبيعية كحيز صالح للحياة، مما يدفع الانسان للمقامرة بوجوده البيولوجي بحثًا عن عدالة مفقودة.

وتتجلى النقيضة في الجدلية البيئية في انقلاب الادوار للسلسة الغذائية في الطبيعة، اذ يقول عمر (فيأكلني سمك البحر. والسمك غريب عنا. أو نحن الذين غرباء عنه)، ففي اطروحة الاتصال كان السمك الايقاع الجميل للوطن، اذ يمثل اهم موارد بيئته الطبيعة، أما هنا في الطرف الاخر من المعادلة الجدلية (النقيض) فيتحول السمك نتيجة للاغتراب البيئي الذي تعيشه الشخصية الى كائن آكل للحوم البشر، وهو قلب للسلسة الغذائية[14] في الطبيعة الفطرية، فهذا الانقلاب في جوهره هو رمز للانكسار الميثاق الفطري بين الانسان وبيئته الطبيعية، فالطبيعة (السمك) فقدت الاتصال الفطري مع الانسان لان (الثقافة) (السلطة/الإدارة) قد مزقت هذه العلاقة، فعبارة (نحن الذين غرباء عنه) تؤكد أنَّ الانقطاع قد

وصل إلى مستوى إبستمولوجيي(معرفي)، فالإنسان فقد لغة التواصل مع عناصر بيئته الأصلية، وأصبح جسده مجرد نفايات تقتات عليها الكائنات البحرية، وبهذا تكون الطبيعة نتيجة لهيمنة الثقافة البشرية هي الرحم الفاسد الذي ينجب ابناءه ليأكلهم. وفي الاخير نجد ان هذا النص يرسخ فكرة جوهرية مفادها، ان (العدالة البيئية) هي الضامن الوحيد لاستمرار الأطروحة (الاتصال الفطري بين الانسان والطبيعة)، وبغيابها ينفرط عقد هذا الاتصال وتتحول الطبيعة (البحر والسمك) من فضاء للحياة إلى مقبرة مفتوحة للإنسان.

بعد ان اظهرت نتائج استقصائنا في النصوص السابقة كيف تحول المحيط البيئي (البحر، السماء، السمك...) من فضاء واهب للحياة الى منفى للغربة والاختناق، فنصل الان مع سيرنا الاستقصائي الى ذروة النفي الجدلي في مدونة زهور كرام، اذ ينتقل النفي الان من المحيط المكاني الى المحيط الحيوي الاول للإنسان (الجسد)، فهنا لا تمارس الثقافة فعل التلوث البيئي فحسب، بل سنجدها تمارس هيمنتها على الذات البشرية، فيتحول الجسد الذي كان في المحطة الاولى (الاطروحة) طينة حيَّة متصلة بالأرض، الى طريق صلد تسلكه الآلة المدنية، فنواجه هنا الانكسار النهائي للميثاق الفطري بين الانسان وطبيعته، اذ يُستلب الانسان في دائرته الوجودية الاولى. فنجد الساردة تقول في مواجهتها التحضر المكاني بعد ان انتقلت من قريتها الريفية الى المدينة **(أشعر بالمدينة تتسرب في جسدي، والطرقات تمتد في جسدي ...صار جسدي طريقا تسلكها المدينة)**[15]، يكشف لنا هذا المقطع السردي عن لحظة تجليات النقيض في صيرورة الجدلي البيئي على مستوى المحيط الحيوي الاول للإنسان (الجسد)، اذ نشهد هنا التصدع التام للأطروحة الأولى التي كانت تمثل حالة الانسجام الفطري بين الانسان وبيئته الطبيعية. ففي هذه المرحلة الجدلية (النقيضة)، تفقد المدينة صفتها بوصفها مكاناً أنثروبولوجياً –الذي يُعرّفه مارك أوجيه بأنه (هوياتي وعلائقي وتاريخي)[16]– لتتحول إلى قوة نفيٍ تستبيح جسد الانسان وتلغي وجوده. فتتجلى النقيضة الجدلية هنا في تحول الجسد من كيانٍ يسكن المكان إلى كيانٍ تسكنه المدينة، وحين تقول

الساردة (صار جسدي طريقاً تسلكه المدينة)، فإنه تصريحٍ مباشر عن انكسار الميثاق الفطري بين الانسان وبيئته بسبب الحداثة المفرطة، هذا التحول يضعنا أمام جوهر "النقيض" الهيغلي، اذ لم يعد الجسد كيانًا ذا هوية بيئية، بل استحال إلى مجرد (طريق) أو فضاء للعبور المؤقت والزائل، تماماً كـ "طرق الملاحة والسكك الحديدية" التي تفقد صلتها بالإنسان لتصبح مجرد وسائط نقل زائلة ومؤقتة كما عبره عنها جاك اوجيه[17]. إن سيادة المدينة (كطريق) داخل الجسد الإنساني تعني خضوعه الكامل لمبدأ "الفردانية الوحيدة" التي تفرضها التحولات الثقافية المصاحبة للحداثة مما يجعل الفرد يتواصل مع صورة غريبة لذاته[18]، بدلاً من التواصل مع فطرته البيئية.

ان هذه النتائج مجتمعة تضعنا أمام مشهد بيئي متصدع، اذ ان الطبيعة ملوثة، وموحشة، والجسد مستباح ، والهوية ممزقة. غير أنَّ هذا الرماد البيئي الذي انتهى إليه المطلب الثاني يضعنا في خضم القلق البيئي، الذي يُعد ضرورة لا بد منها لانبثاق الوعي البيئي الجديد، ومن هنا نستمد المسوغ اللازم للانتقال الى النتيجة الجدلية للمعادلة البيئية التي وضعناها في بداية المبحث، وهي المحطة الثالثة في بحثنا وتسمى في قاموس هيغل(الاطروحة المركبة)[19]، فتصبح هذه الانتقالة ضرورة منهجية وفلسفية، فبما أنَّ أطروحة الاتصال(الانسجام الفطري) قد نُقضت بالنقيض (الثقافة السلبية) التي ادت الى انكسار الميثاق الفطري ، فإنَّ الجدلية تقتضي ظهور "المركب الجدلي" الذي سيعيد صياغة العلاقة بين الانسان وبيئته الطبيعية، الذي لا يقبل العودة الى الفطرة الساذجة، ولا الاستسلام لخراب الطبيعة، بل سيمضي نحو "الوعي البيئي الجديد"، الوعي الذي سيُعيد الاتصال بالطبيعة بوعي ناقد، ليصالح بين الإنسان والطبيعة بتركيبٍ يتجاوز صدمة النقيض نحو أفق الحماية البيئية والاتصال الواعي.

- ثالثًا: الأطروحة المركبة (الوعي البيئي الجديد) :

ننتقل الان الى المحطة الاخيرة من بحثنا وهي الاطروحة المركبة والتي تمثل النتيجة النهائية للمعادلة الجدلية البيئية التي افترضناها عند انطلاقنا في بداية البحث، والتي يفترض ان نكشف فيها عن تشكل الوعي البيئي الجديد (الاطروحة مركبة) كنتيجة حتمية حاصلة من التضاد بين اطروحة (الاتصال) ونقيضتها(تصدع الأطروحة وانكسار الميثاق الفطري)، غير ان الانتقال الى هذه المحطة يواجهنا تحديًا منهجيًا، وهو تجنب زهور كرام في مدونتها السردية اعطاء الحلول البيئية المنجزة او بناء نهايات تتصالح فيها شخصياتها الروائية مع الطبيعة، فهذا الصمت عن تقديم حلول خضراء ناجعة لشخصياتها الروائية، نابع من اعتمادها في مدونتها على ممارسة نوع من الصمت السردي الذي يقودنا تمامًا الى ما يسميه إيزر بـ(البياضات النصية)[20]، التي تمثل في جوهرها (تفككات تفصل بين أجزاء المنظورات النصية، تشير إلى سكوت النص عن ارتباطات معينة يجب على القارئ أن يتمثلها ويقوم بصياغتها بنفسه)[21]. وفي ضوء هذا تترتب علينا هنا ضرورة منهجية تحتم علينا الركون الى (الفعل القرائي) بوصفه الأداة التي تحول الرماد إلى وعي، فالقارئ هنا مدعو للربط والتوليف بين الخطابات السردية غير المترابطة لملء البياضات (الفجوات) التي تفصل بينها. وعليه فإن دور المتلقي في هذه المحطة من الجدلية هو إدماج الأجزاء النصية المبعثرة –البحر الداكن والهواء الخانق والسمك المسموم والطبيعة الموحشة التي تحولت الى منفى والجسد المستلب– في وحدة دلالية متجانسة تعيد تشكيل الوعي البيئي لديه، والذي من خلاله يتم اعادة صياغة الميثاق البيئي المنكسر.

من منظور النقد البيئي نجد ان هذه الاستراتيجية –البياضات النصية– التي تتبعها المؤلفة، تنسجم مع الوظيفة الاكثر اهمية للأدب في ظل الازمة البيئية العالمية التي تحددها غلين لوف اذ تقول ان (الوظيفة الاكثر اهمية للأدب اليوم هي إعادة توجيه الوعي الإنساني

لكي يأخذ في الاعتبار تماما مكانه في البيئة الطبيعية المهدّدة، ولكي يقود ثورة تقلب "الأيديولوجيا الحالية التي تفصل الكائنات البشرية عن بيئتها) [22]، بالإضافة الى انه (عندما يسمح النصّ بالتعاون مع القارئ، وعندما تكون السّمة الأدبية حاضرةً، فأننا نعتقد أنَّ الخطاب البيئي سيتعزّز)[23].

فمن خلال خوضنا في المحطة الاولى (اطروحة الاتصال) وانتقالنا الى المحطة الثانية (النقيض) نجد ان نصوص المؤلفة قد تركت مسافات شاسعة بين الواقع البيئي المنهار تحت ركام التلوث، وبين الذاكرة الطبيعة البكر التي كانت تتمتع فيها الشخصيات بانسجام تام مع بيئتها الطبيعية. ان هذه الفجوات–البياضات النصية– فخ جمالي ستعمل هنا كمحرضات لإنتاج وعي بيئي جديد، من خلال منع القارئ من الاستهلاك السلبي للنص الذي لا يخدم الازمة البيئية التي يعاني منها العالم، فعندما استعرضنا في المحطة السابقة صور النقيض بدءًا بالنص الذي تقول فيه الساردة**(قضى يومًا بكامله خارج العمارة. لم يذهب إلى البحر، ما يزال التلوث يخنق السماء...)** وصولًا الى اخر نص استعرضناه**(كيف أحرر نفسي من النموذج، كيف انطلق...)**، نجد ان السرد يسكت تمامًا عن تقديم حلول تعالج الواقع البيئي للشخصيات الروائية، او تبني لها نهاية بيئية سعيدة، هذا السكوت هو الذي نعني به البياضات النصية، ففي الوقت الذي ينتظر فيه القارئ نهاية تصالحية او حلًا ينقذ الواقع البيئي المنهار للشخصيات، فإن السرد يتركه امام صورة تتحول فيها البيئة الى اشلاء متمزقة تقبع تحت سطوة التلوث وغياب العدالة البيئية والمد الثقافي السلبي. وفي ظل هذه الصورة غير المكتملة فإنَّ القارئ هنا مدعو للربط بين الخطاطات النصية غير المترابطة، لذا فهو في هذا الموقف يستدعي من ذاكرته القرائية الصور المثالية للطبيعة وطبيعة العلاقة بينها وبين الإنسان من اطروحة الاتصال (دروس الجغرافية، الام التي من طينة الارض...)، فعند هذه اللحظة يتحول القارئ من مستهلك للجمال النصي الى منتج

للدلالة، ومن خلال هذا الربط وانتاج الدلالة الذي يحدث في ذهن المتلقي يتم تشكيل الوعي البيئي الجديد، الذي يمثل النتيجة النهائية للجدلية البيئية(الاطروحة المركبة).

لذا نجد ان السرد في مدونة زهور كرام لم يقدم لنا حلولاً جاهزة، بل جعلنا نعيش المعاناة من التلوث الذي يشوه ملامح الطبيعة ويحرمنا من الاستمتاع بجمالها والافادة من مواردها، ومن غياب العدالة البيئية الذي يحيلنا الى المنفى، وتحول الجسد في ظل التوسع العمراني الى طرق للمدينة الجديدة، حتى نُستنتج بأنفسنا ضرورة الحفاظ على الطبيعة والدفاع عنها ضد اي استنزاف واستغلال، ورفضه تحت اي مبرر كان، وبذلك تصبح المحطة الثالثة هي اللحظة التي يكتشف فيها القارئ أنَّ الحل البيئي لا يكمن في صفحات الرواية، بل في تحول وعيه البيئي الخاص تجاه المحيط البيئي، محولاً تجربة المعاناة الناتجة من الاندماج في القراءة إلى طاقة للتغيير الإيكولوجي، التزام اخلاقي يغير موقفنا تجاه البيئة الطبيعية.

وفي ختام هذا البحث لابد من ان نلفت انتباه القارئ الى ان اعتمادنا على المنهج الجدلي لم يكن مجرد خيار تنظيمي يوصل الى نتائج مرضية، بل كان ضرورة منهجية تفرضها طبيعة السرد في مدونة زهور كرام، اذ مكننا هذا المنهج من رصد الحركة الوجودية للكائن الحي من مرحلة الفطرة والسكون البيئي مرورًا بصدمة التلوث والخراب البيئي، وصولاً إلى لحظة التجاوز والوعي الجديد.

اما القيمة المضافة الى هذا المسار المنهجي فتتمثل في دمجنا نظرية التلقي في المنهج الجدلي، لاستنتاج الاطروحة المركبة، فأثبت لنا هذا الدمج المنهجي انتقال الاطروحة المركبة من النص السردي الى وعي المتلقي، وبهذه النتيجة يكون هذا المسار قد اصبح في خدمة النقد البيئي، فالأطروحة المركبة اصبحت انتصارًا للوعي على

الدمار البيئي، وهذا ما جعل من الجدلية البيئية أداة نقدية مكنتنا على كشف المسكوت عنه في العلاقة المعقدة بين الإنسان والطبيعة.

الخاتمة:

وفي ختام هذا المبحث، نخلص إلى أن العلاقة الجدلية بين الإنسان ومحيطه الطبيعي لم تكن علاقة نفعية عابرة، بل كانت مساراً متضمنًا تحولات عديدة متجذرة في عمق الوجود الإنساني.

١- لقد كشف البحث عن قوة "الاتصال الفطري" كأطروحة أولى تبرز العلاقة الفطرية والتلقائية بين الإنسان والطبيعة، اذ تُعد مصدراً لاستلهام قيم التوازن الفطري بين البيئة والإنسان قبل تشويهه.

٢- لعل أبرز ما كشفه البحث هو الوعي العميق بأبعاد الأزمة البيئية من خلال "تجليات النقيض"، فلم يكن هذا المحور مجرد رصد لمظاهر الانفصال بل جاء في سياق يهدف إلى تسليط الضوء على اثار التلوث وغياب العدالة البيئية من خلال شواهد الاغتراب والمعاناة التي احتوتها النصوص الروائية

٣- شكّلت "الأطروحة المركبة" المتمثلة في "الوعي البيئي الجديد" ركنًا مهمًا، بين من خلاله المبحث أهمية النصوص الروائية في إعادة تشكيل الوعي البيئي الجديد

قائمة الهوامش:

(1) موسوعة العلوم الفلسفية، هيجل، تر: أمام عبد الفتاح،دار التنوير للطبع والنشر والتوزيع، بيروت ،مج1، ط3، 2007: 219

(2) الجدل والجدلية بين أفلاطون وأرسطو وبين كانط وهيجل، مقاربة ميتودولوجية، د. زهير الخويلدي،2026/3/19، https://alantologia.com/blogs/92279/

(3) موسوعة العلوم الفلسفية، هيجل، تر: أمام عبد الفتاح: 217

(4) المصدر نفسه 220

(5) موسوعة العلوم الفلسفية، هيجل، تر: أمام عبد الفتاح: 220

6 تم استقاء هذا التقسيم لعناوين المحاور في هذا المبحث من فلسفة التاريخ عند هيغل، وقد طوعنا اطراف هذه النظرية الفلسفية إجرائياً لتلائم سياق النقد البيئي، اذ توازي "أطروحة الاتصال" في بحثنا هذا، "الاطروحة" في منهج هيغل الجدلي ، بينما يوازي "تجليات النقيض" تصدع هذه العلاقة او الانسجام الفطري وهو المحور الثاني ، مفهوم النفي او النقيض في المنهج الجدلي عنده، ثم يأتي المحور الثالث "الأطروحة المركبة (وعي بيئي جديد)" موازيًا للأطروحة المركبة او نفي النفي في منهجه الجدلي.(للاطلاع، انظر:هيغل، بيتر سينجر ، تر: محمد ابراهيم السيد، مؤسسة هنداوي، ٢٠٠١٧/١/٢٦: 100)

7 يُنظر: موسوعة العلوم الفلسفية، هيجل، تر: أمام عبد الفتاح: 220

(8) رواية غيثة تقطف القمر. زهور كرام . منشورات دار الامان . الرباط، ط1، 2015م: 40

9 يُنظر: هيغل، بيتر سينجر ، تر: محمد ابراهيم السيد، مؤسسة هنداوي، 2017/1/26: 100

(10) في المراحل الثقافية القديمة مثل الثقافات البدائية أو الأسطورية، كان الإنسان يرى نفسه جزءاً من الطبيعة؛ فالأشجار والأنهار لها أرواح وقيمة مقدسة. لكن مع تطور "الثقافة العقلانية" والنهضة العلمية، حدث تحول ثقافي كبير، اذ تم اختزال الطبيعة إلى مجرد مادة خام أو مخزن للموارد، فمثلًا يعلن ديكارت في القسم السادس من كتابه "مقال عن المنهج" أن الهدف من الفلسفة العملية هو جعل البشر "سادة ومُلاك للطبيعة" وهو ما يمثل اللحظة التأسيسية لتحول الطبيعة من كيان حي إلى مادة قابلة للقياس والسيطرة، انظر: مقال عن المنهج، رينيه ديكارت، تر: محمود محمد الخضيري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، 1958م: 268.

(11) رواية لا انتفس، زهور كرام، فضائات للنشر والتوزيع، عمان، الاردن،ط1، 2021م: 119

(12) رواية "غيثة تقطف القمر": 20

(13) تختزن الأرض المغربية ما يعادل 70% من موجودات الفوسفات في العالم، ويعد دعامة من دعائم الاقتصاد المغربي، للمزيد انظر: "يختزن المغرب 70% من موجوداته في العالم.، (انظر: ماذا تعرف عن الفوسفات وثروته الهائلة؟"(مقالة)، مريم التايدي،2020/12/7، https://aja.me/7qabg)

14 تُعرف السلسلة الغذائية، بأنها: سلسلة خطية من الكائنات الحية، تُشير إلى ترتيب الأحداث في النظام البيئي، حيث يأكل كائن حي كائنًا آخر، وبعد ذلك يتم استهلاك هذا الكائن من قبل كائن حي آخر أكبر، اذ يشكل ذلك تدفق العناصر الغذائية والطاقة من كائن حي إلى آخر. وفي واقع الامر يقع الانسان في هذه السلسلة الخطية المتعاقبة لانتقال الطاقة في

النظام البيئي ضمن مستوى المستهلكات الاولية والثانوية في آنٍ واحد، فهو يتغذى على النباتات في المقام الاول وكذلك على الحيوانات التي تتغذى على النباتات.(للاطلاع اكثر، انظر: أين يقع الإنسان في السلسلة الغذائية؟، أفنان ربيع، https://mawdoo3.com)، لكن ما نجده هنا–في هذا النص– هو تحول في ادوار هذه السلسلة الخطية للنظام البيئي، فيتحول الانسان الى مستَهلك من قبل الحيوانات التي كان يستهلكها بفطرته الاولى، فمثل هذا التحول في سياق تحليلنا تشظي علاقات هذا السلسلة الفطرية، بسبب غياب العدالة البيئية في المكان.

(15) رواية جسد ومدينة، زهور كرام، مطبعة وليلي، مراكش، ط1، 1996م: 89

16 مدخل الى أنثروبولوجيا الحداثة المفرطة، مارك اوجيه، تر: ميساء السيوفي، هيئة البحرين للثقافة والاثار، مملكة البحرين، المنامة، ط1، 2018: 79–80

17 يُنظر: المصدر السابق: 81

18 يُنظر: مدخل الى أنثروبولوجيا الحداثة المفرطة، مارك اوجيه: 80

19 ينظر: هيغل، بيتر سينجر ، تر: محمد ابراهيم السيد : ١٠٠

(20) يطلق آيزر على هذا المصطلح اسماء شتى مثلًا (الانقطاعات، الفجوات، الاماكن الفارغة بين الطبقات المتنوعة وأجزاء النص)، بالإضافة الى ان النقاد العرب، قد استخدموا هذا المصطلح بأسماء متنوعة، مثلًا الدكتورة فاطمة البريكي اعتمدت اسم الفجوات في دراستها (قضية التلقي في النقد العربي القديم)، (يُنظر: صـ 57 من الدراسة نفسها) ، والناقد عبد الكريم شرقي، قد اعتمد اسم البياضات النصية، في دراسته (من فلسفات التأويل الى نظريات التلقي).

(21) من فلسفات التأويل الى نظريات التلقي، عبد الكريم شرقي، الدار العربية للعلوم–ناشرون، بيروت، ط1، 2007، 225

(22) النقد البيئي "مقاربات مادية نظرية وتطبيقية" لانس نيومان، ضمن كتاب النقد البيئي (مقدمات، مقاربات، تطبيقات):70

(23) السرد البيئي: نوع جديد بين التربية والأدب، لورانس ألان فوريستيه، تر: د. رضا الابيض، مجلة الثقافة الاجنبية، العدد الرابع، السنة الخامسة والأربعون، 2024م : 47

المصادر والمراجع:

- رواية جسد ومدينة، زهور كرام، مطبعة وليلي، مراكش، ط1، 1996م.
- رواية غيثة تقطف القمر. زهور كرام . منشورات دار الامان . الرباط، ط1، 2015م.
- رواية لا اتنفس، زهور كرام، فضائات للنشر والتوزيع، عمان، الاردن ،ط1، 2021م.

- السرد البيئي: نوع جديد بين التربية والأدب، لورانس ألان فوريستيه، تر: د. رضا الابيض، مجلة الثقافة الاجنبية، العدد الرابع، السنة الخامسة والأربعون، 2024م.
- مدخل الى أنثروبولوجيا الحداثة المفرطة، مارك اوجيه، تر: ميساء السيوفي، هيئة البحرين للثقافة والاثار، مملكة البحرين، المنامة، ط1، 2018م.
- مقال عن المنهج، رينيه ديكارت، تر: محمود محمد الخضيري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، 1958م.
- من فلسفات التأويل الى نظريات التلقي، عبد الكريم شرقي، الدار العربية للعلوم–ناشرون، بيروت، ط1، 2007م.
- موسوعة العلوم الفلسفية، هيجل، تر: أمام عبد الفتاح، دار التنوير للطبع والنشر والتوزيع، بيروت ،مج1، ط3، 2007م.
- النقد البيئي (مقدمات، مقاربات، تطبيقات)، مجوعة باحثين، تر: نجاح الجبيلي، دار شهريار، العراق، البصرة، ط1، 2021م.
- هيغل، بيتر سينجر ، تر: محمد ابراهيم السيد، مؤسسة هنداوي،2014م.

المواقع الإلكترونية:

- أين يقع الإنسان في السلسلة الغذائية؟، أفنان ربيع، https://mawdoo3.com

- ماذا تعرف عن الفوسفات وثروته الهائلة؟"(مقالة)، مريم التايدي،2020/12/7، https://aja.me/7qabg